

عناصر وحدة الأمة الإسلامية بين النظرية والتطبيق

عناصر وحدة الأمة الإسلامية بين النظرية والتطبيق

أ.د. محمد الدسوقي

أستاذ الدراسات العليا قسم الشريعة

كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

هل كان هؤلاء العرب الرحل الذين عاشوا في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام ينظر إليهم من الدول التي تحيط بهم أو تبعد عنهم نظرة اهتمام أو اكتراث ..؟

هل كان يتوقع من هؤلاء الذين ثارت بينهم الحروب لأتفه الأسباب وأووه العلل أن يوحدوا كلمتهم، ويجمعوا أمرهم، ويكونوا مصدر قلق لسوادهم ..؟

إن عرب الجahليّة على ما عرفوا به من البأس والشدة، لم يكونوا مصدر قلق لغيرهم من الأمم لأنهم عاشوا أزواجاً لا تجمعهم رابطة، ولا يقودهم زعيم، ولا يخضعون لقانون أو سلطان، فبأسمهم بينهم شديد، وثاراتهم تعمّص كل ما لديهم من طاقات فضلاً عن المنكرات التي فشت فيهم وفي مقدمتها عبادة الحجارة ..

فلما جاء الإسلام حول هذه الأمة المفككة المتصارعة المنحلة، إلى أمة أخرى، لها قيمها الخالدة ورسالتها المجيدة، لقد صار العرب بالإسلام أمة جديدة في عقيدتها وسلوكها ومثلها، أمة توحدت كلمتها، وقويت إرادتها وسمت مبادئها وغاياتها، فقادت البشرية إلى الإمام وأذهلت العالم بفتحها في شتى الميادين . فلولا الإسلام لظل العرب كما كانوا في جاهليتهم جماعات متحاربة، تحصدتها العداوات والغارات، وتسلب منها الصغار والاحقاد ولظلوا يعيشون في عزلة في تلك الصحراء المجدبة، يقيم العالم لهم وزنا .

أن الإسلام دين الحياة المتقددة الفاضلة، لأنه دين الوحدة الشاملة والقوة العادلة وبالوحدة والقوة تتحقق كل المعجزات وتعيش الأمة التي تؤمن بهما قوله و عملاً مرهوبة الجانب عزيزة المكانة يخطب ودها الجميع .

على أن دعوة الإسلام إلى الوحدة والقوة، لا تقوم على نزعة عنصرية كريهة، تبغي الاستعلاء والسيطرة، لأن الإسلام دين الله إلى الناس جميعاً، لا يعرف عصبية إلا للحق، ولا يبغى على إلا الكلمة الله.

من أجل ذلك قرر الإسلام أولاً أن الناس من نفس واحدة وأصل واحد (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً [آلية 31 في سورة النساء].

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِذَا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِيلَ لِتَعَاوَرَ فُؤُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَرْفَاقَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ خَبِيرٌ [آلية 13 في سورة الحجرات].

ويقول الرسول ﷺ "كلكم آدم وآدم من تراب".

وحين قرر الإسلام ذلك فقد أبطل تلك المزاعم التي تذهب إلى تفضيل بعض الشعوب والأجناس على بعض لأسباب ليست لها علاقة بهذا التفضيل ولا تدل إلا على عنصرية بغيضة عفي عليها الإسلام، ونزعة منحرفة قاست منها البشرية وما زالت الويلاط والمتاعب، ويكتفى أن الحربين العالميتين لهذا الانحراف الكريه، كما أن الصهيونية العالمية بنشاطها المحموم في كل مكان من أجل تحقيق أحلاهما العريضة في الوطن العربي إنما يحركها ويشد أزرها مزاعمها العنصرية البغيضة التي تنظر إلى غير اليهود نظرة الكراهية والاستعلاء والعداء.

فال المسلم إذن يؤمن بأنه عضو في الجماعة الإنسانية كلها، وأن هذه الإنسانية لا يتفاوت أفرادها من ناحية الشكل والمكان ولكن من ناحية ما يقوم به كل فرد من عمل صالح ينفع الناس، وهذا الإيمان يفرض على المسلم أن يسهم ما استطاع في تقدم الحياة ورفاهيتها وأن يكون دائماً رسول خير وسلام وداعية أمن

هذا من ناحية أخرى يؤمن المسلم بأنه والمسلمين جميعاً يشكلون أمة أبرز سماتها الوحدة) إِنَّ هَذِهِ أُمّةً تَكُونُ أُمّةً وَاحِدَةً وَأَنَّا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونَ ([الآلية 92 في سورة الأنبياء] . والأخوة) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَإِذْ كُرُوا زِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِذِعْمَةِ إِخْرَاجِهِ إِخْرَاجًا ([الآلية 103 في سورة آل عمران] . والمحبة والتنافر والتكافل "وتعاونوا على البر والتقوى" . (من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم) .

فوحدة المسلمين قواها الأخوة والمحبة والإيمان بأن وسائل العقيدة أقوى وأولى من وسائل الدم والنسب، ولذلك فهي

وحدة راسخة الدعائم لا تنال منها الأحداث، لأنه لا يمكن تحقيق وحدة سليمة أصلية في مجتمع لا يشعر أفراده بأنهم سواسية كأسنان المشط، وبأنهم أخوة تجمعهم عقيدة لا تؤمن بفوارق الأجناس والألوان .

إن الوحدة في الإسلام وحدة جامعة، والمسلمون بها كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام كالجسد الواحد أو كالبنيان المرصوم يشد بعضه ببعضه .

ولحرص الإسلام على وحدة أتباعه وتماسكهم وبقاءهم دائماً صفاً واحداً وقلباً واحداً نهى عن كل ما يضعف هذه الوحدة فلا غيبة ولا حقد ولا كذب ولا نفاق ولا اعتداء على الحقوق والحرمات، وإذا ما نشب خلاف بين جماعتين من المسلمين فقد وجب الإصلاح بينهما وإزالة جميع أسباب الخلاف والشقاق، وإذا لم تذعن إحدى الطائفتين لما فيه الخير للمسلمين كان استعمال السلاح ضدها أمراً مشروعاً وعملاً مطلوباً (وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَمْسِكُوهُمَا فَإِنْ يَأْتِي أَمْرٌ مِّنَ اللَّهِ

فَإِنْ فَوَاءتْ ۖ فَأَمْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
الْمُقْسِطِينَ ۝ [الآلية ٩ في سورة الحجرات]

إن الإسلام يمتحن التفرق ويحذر من الخلاف ويحصن على الوحدة لأنها سبيل القوة وطريق النصر والعزّة)
وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ (..) وَلَا تَنْذَرَ عُوْدًا فَتَنْذَرْ شَلُوْدًا
وَتَذَهَّبَ رِيْحُكُمْ ۝ .

وقد يقال - إذا كان الإسلام دين وحدة واتحاد فلماذا نرى المذاهب الفقهية والكلامية قد فرقت المسلمين إلى نحل ومذاهب تناحص وتعادي وتحدى بين المسلمين شقاًقاً وخلافاً ؟ ولكن إذا عرفنا أن المذاهب الفقهية والكلامية لا تخوض في المسائل القطعية والأحكام الكلية، وإنما تبحث في المسائل الطنية والفرعية وأن اختلافات المجتهدين ليست مبعث شقاًقاً لأنها آية على تفاوت العقول في المدارك والاستنباط - إذا عرفنا هذا أدركنا أن ما نراه ونسمعه من تناحص بين المذاهب الفقهية إنما ظهر في عصور الضعف والتخلف والتقليد ومع هذا فإن الذين يفهون الإسلام فقهاً واعياً يرون أن هذا الدين يدعو إلى الوحدة بكل معانيها، ولا يرون في مذاهب الفقهاء وعلماء الكلام ما ينقص هذه الوحدة، لأن هذه المذاهب ليست منزلة من عند الله، فهي آراء كونتها ظروف بيئية واجتماعية وثقافية مختلفة، وبالتالي ليست فرضاً يجب اتباعه، وليس لازماً على المسلمين أو بعضهم الأحد بقول إمام دون آخر وقد آن للMuslimين أن يتحرروا مما خلفته لهم عصور الضعف والتقليد . فلا ينزلون مذاهب الفقهاء منزلة لا يقرها دين ولا منطق، ولا يختلفون بسبب آراء لم نؤمر بإتباعها وعدم الخروج عليها، ول يجعلوا قبلتهم في تعرف أحكام دينهم كتاب الله وسنة رسوله مع الاسترشاد بآراء الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين .

عناصر وحدة الأمة الإسلامية أو دعائم هذه الوحدة

إن الذي لا مراء فيه أن الإسلام جاء لبناء أمة وإنشاء دولة وإقامة مجتمع رائد وقائد في شتى المجالات. ولاتنى الأمم أو تنشأ الدول، وتقام المجتمعات إلا بالمبادئ والقيم الصالحة للحياة .

والإسلام - وهو دين الله إلى الناس كافة - قرر أقوم التشريعات والفرائض التي تبني المجتمع الجدير بالرّيادة، وقيادة البشرية نحو المثل العليا والغايات النبيلة.

ومن يستقرئ ما قرره الإسلام من تشريعات ومبادئ ينتهي إلى أن أهم الدعائم التي ينهرها المجتمع الإسلامي هي:

- | | | | |
|----------------|--------------|---------------|--------------|
| 1- التوحيد . | 2- الوحدة . | 3- المساواة . | 4- الحرية . |
| 5- الإيجابية . | 6- التوازن . | 7- التكافل . | 8- الفضيلة . |
| 9- العدالة . | 10- القوة . | | |

وتعتبر دعامة التوحيد أساس كل الدعائم التي تميز المجتمع الإسلامي عن سائر المجتمعات . والتوحيد في مدلوله العام يعني إخلاص السلوك البشري الله وحده، فلا يعني التوحيد الإيمان بأن الله واحد أحد فرد صمد فحسب، ولكنه إلى هذا يعني التوجه إليه سبحانه بكل عمل يزاوله الإنسان، ومن ثم لا يخشى غير خالقه، ولا يريد بما يأتى ويذر من الأقوال والأفعال غير مرضاه ربها، وبذلك يتمتع بطاقة إيمانية تمنعه من أن يذل البشر، أو يرضى بدنيّة، أو يقصر في عمل، فمجتمع التوحيد إذن مجتمع العزة والحرية والكرامة والإحسان في كل شيء، مجتمع تسوده القيم التي تجعل منه النموذج الأمثل، والقدوة الحسنة في القول والفعل .

وآفة الآفات في المجتمعات المعاصرة أنها تخلت بصورة عملية عن مبدأ التوحيد، فشاعت فيها مظاهر الوثنية المختلفة من عبودية المادة والسلطة . ومن عبودية الإنسان لأخيه الإنسان، فلم يعد السلوك البشري خالصاً وحده، ولم تعد الخشية منه سبباً في تحكم هذا السلوك، وتتأثر به عن مواطن الرياء والنفاق والختل، ومن هنا كثرة مشكلات تلك المجتمعات وأمراضها المادية والمعنوية، وزايلها شعور الاطمئنان والأمان، واستبد الخوف والقلق بالجميع، على الرغم مما ينعم به الناس من منجزات حضارية خلابة :) الْأَذِينَ آمَدُوا وَرَطَمَدَنْ قُلْوَبُهُمْ بِرَذْكُرِ اللَّهِ أَلَا بِرَذْكُرِ اللَّهِ رَتَطَمَدَنْ الْقُلُوبُ ([سورة الرعد : آية 28] .

وإذا كان المجتمع الإسلامي مجتمع التوحيد فإنه أيضاً مجتمع الوحدة، ووحدة الصف، والهدف والتشريع والفكر، وحدة جامعة تدعم البناء، وتدرك عنه كل أسباب التصدع والانهيار .

إن دعامة التوحيد التي ينهض عليها المجتمع الإسلامي تربط بين المؤمنين برباط وثيق، فهم به أمة واحدة، أو بناء مرصوص يشد بعضه ببعضه .

إن الوحدة بين جماعة من الناس لا تقوم على الوحدة العرقية أو اللسانية أو الجغرافية، أو المصالح المادية، وإنما تقوم في جوهرها على الوحدة الفكرية، فهذه الوحدة هي التي تؤلف بين القلوب، وتجمع بين الشاعر، وتحد من خلاف الرأي، فتتحقق من ثم الوحدة بمعناها الصحيح، وبدون الوحدة الفكرية والعقدية لا يمكن أن تقوم وحدة حقيقة .

والمجتمع الإسلامي لوحدة عقيدته، ووحدة شرعيته مجتمع الوحدة الفكرية في أصولها وأسسها العامة، ولذا كان مجتمع الوحدة الشاملة الكاملة، وما تعرض له هذا المجتمع عبر تاريخه الطويل من تمزق وتفرق مرده إلى وهن عقيدته الذي أثمر وهن الفكر، فكان التفرق والصراع بين شعوبه أحياناً نتيجة حتمية لذلك .

على أن من يمعن النظر في تعاليم الإسلام يجد أنها تنظر إلى الفرد في نطاق الجماعة، وأن الجماعة هي الغاية، ومن شد عنها أو سعى لتفريق كلمتها فما أله عذاب جهنم، وأن كل ما يهدد وحدتها كالاعتداء على الحقوق والحرمات أو التنابذ بالألقاب والتفاخر بالأحساب والأنساب - حرم محظور، وإذا اختلفت بعض طوائف المسلمين وجرها الاختلاف إلى الاقتتال فإن على الأمة أن تقلم أطفال البااغي حتى يفيء إلى أمر الله، لتظل الأمة كما وصفها القرآن الكريم) إِنَّهُدِّهُ أُمَّةٌ تَكُونُ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَزَانَ رَبُّكُمْ فَإِاعْبُدُونَ ([سورة الأنبياء : الآية 92] ، ولبيطللها دائمًا الإباء والمحبة والإيمان بأن وشائج العقيدة أقوى من وشائج الدم) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَمْصِبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِذْ وَاهَأْ ([سورة آل عمران : الآية 103] .

وحدة المجتمع الإسلامي وحدة إنسانية غير عنصرية، فالMuslim يؤمن بأنه عضو في الجماعة البشرية كلها، وأن مصدر النشأة لهذه البشرية واحد، وكذلك مصيرها واحد، وأن الأفراد لا يتفاوتون من حيث الشكل واللسان والمكان، وإنما يتفاوتون من حيث التقوى، وما يقوم به كل منهم من عمل صالح ينفع الناس وهذا يفرض على المسلم أن يسهم ما استطاع في تقدم الحياة ورفاهيتها، وأن يكون دائمًا رسول خير، وداعية إصلاح، ومن هنا تصبح الوحدة الإسلامية وحدة تنصر الحق وتقصى على الظلم، وتعاون على البر والتقوى، ولا تكون بحال وحدة تنظر إلى الآخرين نظرة ازدراء أو عداء .

وأما دعامة المساواة فهي ثمرة طبيعية لدعاه الوحدة، فهذه لا تتغلغل في الضمائر والمشاعر إلا إذا أيقن الجميع أنهم سواء في الحقوق والواجبات وأنه لا محاباة ولا تمييز بين الناس لجاه أو سلطان .

إن وحدة النشأة والمصير تعنى أن المساواة حقيقة لامراء فيها، وأن التفاوت في الطاقات والقدرات، وإن أدى إلى تفاوت في المناصب والثروات لا يعني طبقية أو تفريقا بين الناس في الكرامة الإنسانية، أو حق الحياة الكريمة، فالكل أمام تشريع الله كأسنان المشط، لا أنساب ولا أحساب، ولكن مساواة وعدالة، ويتحقق للأمة بهذا قوة معنوية تؤلف بين قلوب أبنائها، فلا حقد ولا بغضاء ولا حسد ولا استعلاء وإنما تآلف ومودة وإيثار وتعاون، كما يتحقق لنا قوة مادية، فالكل يعمل وفق ما يسر الله لكل منهم، والكل

يعطى في سخاء وإحسان، لأن أحداً لا يظلم، ولا يذهب جهده وعرقه إلى متعطل أو مستبد طاغية .

إن تكريم الله للإنسان تتجلّى بعض صوره في إلغاء كل الأعراض الزلالية من حيث اتخاذها معياراً للتفاصل بين الناس فهم كافة كأسنان المشط، لا يتفاصلون إلا بالتقوى والعمل الصالح، وفي ذلك فليتنا فس المتنفسون، فالمساواة من ثم تكريم للإنسان وتوجيه لطاقاته وقدراته نحو الخير والبر والإتقان، ولهذا كانت ردة الله للوحدة، وثمرة لها أيضاً، كما كانت مصدرًا لقوة الأمة وعطائها، وهي لذلك دعامة أساسية من دعائم المجتمع الإسلامي، مجتمع التوحيد والوحدة والقوة في مختلف مجالاتها .

وتعنى الحرية أن المجتمع الإسلامي لا يقر رقا فيه أيا كان لونه، فالناس خلقوا أحراراً، فلا ينبغي أن يخضعوا إلا لبارئهم، ولا يجوز أن يستعبد الإنسان أخيه الإنسان، ولذا كانت ظاهرة الرق في تاريخ البشرية امتهاناً صارخاً للكرامة الإنسانية، وجاء الإسلام وكانت هذه الظاهرة لا تكاد تخلو بقعة من الأرض منها فعالجها بأسلوبه الخاص الذي يقوم على التدرج والواقعية، بحيث تتوارد من المجتمع في فترة زمنية وجيزة .

والحرية في المجتمع الإسلامي ليست مقصورة على تتمتع كل فرد بإرادته و اختياره وإنما تتجاوز ذلك لتشمل تحرر الإنسان من كل ما يشوه معنى عبوديته الله وحده، فكما لا يجوز أن يسترقه بشر، أو يحجب عنه حاجاته الضرورية محكر لا يجوز أن يستعبده الهوى، أو النفس الأمارة بالسوء، فهو دائمًا يستعلى على الشهوات ولا يستجيب لرغبات الجسد إلا في حدود التشريع الإلهي، وبذلك تتحقق الحرية بمعناها الصحيح في المجتمع .

ويقصد بالإيجابية إسهام كل فرد في المجتمع بحسب طاقاته وما يُسر له، في تقدم الأمة، كما يقصد بها أيضاً أن يكون الإنسان ذا شخصية ترفض أن تقليد سواها، أو تذوب في غيرها، أو أن تكون إمّعة لا موقف لها يعبر عن ذاتها، ويعكس إرادتها واستقلالها .

إن من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، ومن ثم لا يتصف المسلم بالفردية، أو الأنانية والسلبية، إنه يشارك مشاركة عملية في كل ما يهم الأمة، فإذا لم يقم بواجبه كاملا فهو آثم .

ولأن المسلم يؤمن بأنه مسئول عن غيره يصبح كل فرد في المجتمع الإسلامي كالحارس الذي يشهر سلاحه دائمًا للذود عما كلف بحراسته، فهو لا يرى منكرًا ثم لا يغيره ما استطاع، ولا يصمت حين يفرض عليه الواجب أن يجهر بكلمة الحق، ولا يفرط في عمل أنسد إليه، أو طلب منه، ولا يقف موقف المتفرج إزاء ما يلم بالأمة من مشكلات، وبذلك تكون الإيجابية هي الطابع العملي للمجتمع الإسلامي، ويكون بها كما شبهة رسول الله ﷺ كالجسد الواحد أو كالبنيان المرصوم .

ويسود التوازن المادي والمعنوي المجتمع الإسلامي، فلا يعرف هذا المجتمع غنى فاحشا وفقرًا مدقعاً، وإنما يعرف مستوى لائقاً من العيش لكل فرد، ويأتي أن يكون التفاوت في حظوظ المال ذريعة إلى الطبقية والاستغلال .

إن الإسلام مع إقراره للتفاوت في الطاقات الفردية، وما يتربى عليها من تفاوت في الثروة يرفض أن يصل هذا التفاوت إلى درجة تجعل المجتمع فئتين : فئة في القمة، وأخرى في السفح، فئة تنعم بكل شيء، وأخرى لا تجد ما يبقى الرمق، أو يحفظ الحياة، وإنما يأمر بألا يكون المال دولة بين الأغنياء، وأن تتقرب الفروق في العيش بين الناس .

وإذا انتفى المصراع بين أفراد المجتمع بسبب المال، لأن الكل يحصل عليه في توازن معقول، وفق طاقة كل فرد وجهده الذاتي - توارت مشكلات كثيرة، وعاش المجتمع في أمن وسلام، وزاد عطاء كل فرد، فينموا الإنتاج العام، ويعود هذا على الأمة بالرخاء والاستقرار .

والإسلام لا يقيم مجتمعه على التوازن المادي فحسب، وإنما يقيمه مع هذا على التوازن المعنوي، أي الوسطية في المشاعر والعواطف، حتى في الطاعات والقربات، حرصاً على الاستمرار في الطاعة، فخير

العمل أدومه وإن قل، وقد جاء في الآخر : "أيها الناس، أحبوا هونا، وأبغضوا هونا، فقد أفرط أقوام في حب أقوام فهلكوا، وأفرط أقوام في بغض أقوام فهلكوا" .

إن المجتمع الإسلامي مجتمع القصد والاعتدال في كل شئ، مجتمع يأبه الإفراط والتفريط، ويتسم دائمًا بالتوارن والوسطية، وبهذا كانت له منزلة الشهادة على غيره من المجتمعات : وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا [البقرة : الآية 143] .

أما دعامة التكافل فهي ثمرة طبيعية لوحدة العقيدة، وإيجابية كل أبناء الأمة، وهذا التكافل كالتوازن منه المادي والمعنوي، والجانب المادي في التكافل ينصرف إلى مسئولية كل قادر على الكسب عن غيره من الضعفاء، والعاجزين ومن انقطعت بهم سبل العيش، أو من تعرض لخسارة مالية بسبب جائحة أو حريق أو سيل أو دين في غير معصية، ولو كان لديه مال، ولكن الدين محظوظ به .

إن التكافل في الإسلام أمر مفروض سواء في محظوظ الأسرة أو البيئة أو الأمة بأسرها، ففي محظوظ الأسرة فرض الإسلام النفقة، وجعل كل قادر في الأسرة مسؤولاً عن العاجزين والفقراء فيها .

وفي محظوظ البيئة كالقرية أو الحي مثلاً قرر رسول الله التكافل فيها بقوله : "أيمماً أهل عرصه أصبح فيهم أمرؤ جائعًا فقد برئت منهم ذمة" (رواوه الإمام أحمد في مسنده) .

وقد أفتى الإمام ابن حزم بأنه إذا مات رجل جوعًا في بلد اعتبر أهله قتله، وأخذت منهم دية القتل .

أما التكافل بالنسبة للأمة فقد حملت رسالته الزكاة، وهي ليست إحسانًا فرديةً متروكًا لضمائر الأفراد وتقديرهم الذاتي، وإنما هي حق تأخذه الدولة، وتقاتل عليه، وتنفقه في مصارف الزكاة، كما

أنها ليست سوى قاعدة واحدة من قواعد التكافل في الإسلام، فلوليٌّ الأمر الحق – عن طريق الشورى – في أن يفرض على الأغنياء ما يكفي حاجة الفقراء غذاء وملبسًا ومسكنًا .

على أن التكافل في الإسلام لا يعني فقط تأمين الفقراء ومن في حكمهم على أنفسهم وعلى من يعولون في حياتهم وبعد مماتهم بكافلة ما يكفيهم من الطعام والكسوة والمسكن الذي يؤمن بهم، ولكنه يشمل أيضًا تأمين أرباب الأموال على مستواهم الذي وصلوا إليه بجهدهم في الحال، فقد أمرَ الله في الإسلام كل فرد على ماله من مسكن أو أثاث أو ماله في التجارة وغيره ضد الغرق والحرق والآفات العارضة، كما ضمن له كل دين ينفقه في المكارم أو المصلحة العامة .

وينعم بالتكافل في المجتمع الإسلامي كل من يعيش في هذا المجتمع سواءً كان مسلماً أم غير مسلم، فحماية الإنسان وتحقيق مستوى لائق من العيش له – دون نظر إلى عقيدته – أصل من أصول الشريعة الغراء

وهذا الجانب المادي للتكافل مظهر من مظاهر التكافل المعنوي بين المسلمين، لأن الله تعالى يقول في كتابه الكريم : إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ [الحجرات : الآية 10]، وإعلان الإخاء بين أفراد مجتمع ما هو تقرير للتكافل والتضامن بين أفراد هذا المجتمع في المشاعر والأحاسيس وفي المطالب وال حاجات وفي المنازل والكرامات .

والمجتمع الإسلامي إلى قيامه على ما سبق القول فيه من الدعائم يقوم على الفضيلة بمفهومها الشامل، أي الالتزام الخلقي في كل تصرف، فليست الفضيلة خلقاً عظيماً مع الآخرين، فحسب، ولكنها مع هذا خلق حسن في جميع ما يتولاه المسلم من أعمال، ويصدر عنه من سلوك، فقد كتب الله الإحسان على كل شئ، فمن فرط أو قصر وهو قادر على الإتقان كان مسيئاً، وطالماً وله لا يحب الطالمين .

إن المجتمع الإسلامي مجتمع الفضيلة، لأنه مجتمع الكرامة والعزة، ولا كرامة للإنسان ولا عزة له ما لم

يتمتع بخلق عظيم، خلق يرقى بإنساناته، ويحفظ عليه منزلته ورسالته في الحياة .

ودعامة الفضيلة لا تستلزم بالضرورة زوال الخطأ والخطائين، وإنما لاستبعدت أحكام العقوبات التي قررها الإسلام، فهي تعنى أن المجتمع لا يخلو من عثرات وهفوات وأن الإنسان لضعفه قد ينزل في بعض الأحيان، وإنما تشير تلك الدعامة إلى أن يسود المجتمع طابع الفضيلة والخير لا أن يتنزعه عن جميع السينات.

ومجتمع تحكمه وحدة العقيدة ووحدة الغاية ووحدة الفكر، وكل أفراده سواء في الحقوق والواجبات، وبينهم تكافل مشترك، ويتمتع الجميع بمستوىائق من العيش، ولا يعرفون صراءً طبقياً أو عرقياً، كما لا يعرفون سلبية أو فردية، وهم على خلق عظيم، يكون مجتمعًا تسوده العدالة، فلا محاابة ولا ظلم ولا فرق بين غني وفقير، وقوى وضعيف، وحاكم ومحكوم.

إن المجتمع الإسلامي مجتمع عادل، وكل من يستظل بظله ويعيش في كنهه آمنًا على حياته وحقوقه، لا يخاف اعتداء أو جرأة، وكل من يتعامل معه من المجتمعات الأخرى لا يخشى منه غدرًا ولا نكثًا لعهد، فالإسلام دين العدل والحق مع الجميع .

وتأتي دعامة القوة لتكون المحصلة لسواعها من الدعائم، وهي قوة شاملة، قوة الإيمان والأبدان والتراحم والتعاطف والعمل والإنتاج وإحراق الحق وبسط العدل وسيادة الفضيلة، وقوة الإعداد العسكري الذي يلائم الزمان والمكان حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين كله . إن القوة بهذا المفهوم الشامل دعامة لا تنفك ملازمة للمجتمع الإسلامي، حتى يكون جديراً بمنزلة القيادة والريادة والخيرية، يقول الله تعالى :)
وَأَعْدُوا لَهُم مَا اسْتَطَعُوا مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ
عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ
وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ([الأనفال : الآية 60] .

تأمر هذه الآية المؤمنين بإعداد القوة بما في الطوق، فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها والقوة هنا عامة تشمل كل ألوان القوة وأسبابها، وجاء النص على رباط الخيل؛ لأنه كان الأداة البارزة عند الذين خاطبهم القرآن أول مرة، ولو أمرهم بإعداد أسباب لا يعرفونها في ذلك الحين مما سيجد مع الزمن لخاطبهم بمجهولات محيرة تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

والقوة التي أمر الإسلام بإعدادها ليست قوة باغية أو مفسدة ومدمرة، ولكنها قوة تحمى الحق وتنصر الخير وتقاوم الشر، فهي في أهدافها و مهمتها لا تخرج عما يلي كما أشارت تلك الآية الكريمة :

أولاً : تأمين الدين يختارون العقيدة الإسلامية على حرفيتهم في اختبارها فلا يُصدون عنها ولا يفتنون كذلك بعد اعتناقهها .

ثانياً : إرهاب أعداء الإسلام، فلا يفكرون في الاعتداء على داره التي تحميها تلك القوة .

ثالثاً : وليس إرهاب هؤلاء الأعداء لمنعهم من الاعتداء على المسلمين فحسب، ولكن أيضًا للحيلولة بينهم وبين الوقوف في وجه المد الإسلامي، وهو ينطلق لتحرير الإنسان في كل مكان .

رابعاً : تحطيم كل قوة في الأرض تتخذ لنفسها صفة الألوهية، فتحكم الناس بشرائعها وسلطانها، ولا تعرف بأن الألوهية الله وحده، والحاكمية الله وحده .

ولما كان إعداد القوة يقتضي أموالاً فقد اقترب الأمر بالإعداد بالدعوة إلى إنفاق المال في سبيل الله (وَمَا تُنفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ) [الأనفال : الآية 60].

فالقوة الإسلامية لا تتغيا مصلحة دنيوية، وإنما هي قوة تمكن لكلمة الحق، وترهب أعداء الله الذين هم
أعداء المسلمين، وأعداء الحياة ...

وبعد فإن مجتمعا ينهم على تلك الدعائم يكون بلا مراء مجتمعا فريداً بين المجتمعات البشرية، فريدًا في قيمه ومبادئه، ومثله وغاياته، مجتمعا قوياً في عقيدته ووحدته وأخلاقه، مجتمعا قوياً في جهاده واستعداده وانتاجه، مجتمعا مستقراً، الكل فيه آمن مطمئن، والكل فيه لا يفتر عن الانتشار في الأرض طلباً لأنعم الله، والكل فيه أخوة متساون في الحقوق والواجبات متآزرون متکافلون في السراء والضراء، فلا غرو في أن يكون هذا المجتمع بتلك الخصائص والسمات خير المجتمعات وأن تكون الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس .

لقد كان المجتمع الإسلامي بتلك الدعائم عبر تاريخه المثل الأعلى لغيره من المجتمعات، فلما فرط في هذه الدعائم أو جلها فقد منزلته، وذهب ريحه، وطمع فيه من كان يخطب وده ويخشى بأسه، وهو لن يسترد ما صنع منه أو يصبح بحق القدوة لغيره إلا إذا اعتمد بأسباب عزته وقوته التي جاء بها وحي الله، وكل جهد يبذل في سبيل النهوض بهذا المجتمع بعيداً عن تلك الأسباب والدعائم جهد ضائع لا يجدي نفعاً، بل يزيد من بلاء المجتمع الإسلامي وضعفه وتخلقه .

وصدق الله العظيم إذ يقول :) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّدَّبِعُوا إِنَّمَا يَنْهَا عَنِ السُّبُلِ فَتَفَرَّقُ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَمَا كُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَرَكُونَ ([الأنعام : الآية 153] .